على هذه الرمال

قصة طويلة

باب أحمد ولد علي

مراجعة لغويّة: أ. هشام وهبي

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2019

على هذه الرمال

قصة

د: باب أحمد ولد علي

مراجعة لغوية: أ. هشام وهبي

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني

البريد الإلكتروني

kesasandhekayatpub@gmail.com

موقع الدار

https://kesasandhekayatpub.blogspot.com/

للتواصل عبر ماسنجر صفحة الدار

m.me/kesasandhekayat

فريق عمل الدار

أ. رمضان سلمي برقي

أ. حسن كشاف

أ. هشام وهبي

العنوان: على هذه الرمال

النوع الأدبي: قصة طويلة

المؤلف: باب أحمد ولد علي

المُدقِّق اللُغوي: الكاتب بنفسه

مراجعة: هشام وهبي _ فريق الدار

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج: فريق الدار

تصميم الغُلاف: فريق الدار

سنة النشر: 2019

الحالة: حصريًا

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار:20

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2019

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الصفحة الجروب الموقع

في تلك القرية الوادعة الهادئة...

والتي تبعد خمسين كيلومترًا عن أقرب تجمُّع حضري كبير، التقى بها لأول مرة. كان ذلك اللقاء في عرس لإحدى بنات عمها حضره صدفة، حيث زار القرية تلبية لدعوة خالته، التي تسكن القرية لفترات متقطعة خلال فصل الخريف، كنوع من الترويح عن صخب المدينة.

أعجبته من النظرة الأولى، بَدَتْ مختلفة عن بقيّة فتيات القرية، كما بدت مهتمة به بشكل لافت، وتنظر إليه نظرات من يعرفه منذ زمن، وكأنها تعرف ما يدور في خاطره في تلك اللحظات.

لم يكن معروفًا في القرية، حيث لا يزورها إلا نادرًا، إلا أنه يحمل تأشيرة دخول لقلوب سكان القرية، فهو يكفيه أن يقول إنه ابن فلان، وأن خالته فلانة، فقد كان أهله تاريخيا حماة وشيوخًا وزعماء لأهل القرية، ومازالوا ينظرون إلى أهل القرية نظرة استعلاء؛ فهِم ذلك من حديث ابن خالته، المرافق له، والذي دعاه لحضور حفل الزفاف من الأساس قائلًا:

– تعال نحضر هذا الزفاف، سيكون الحفل رائعًا١، إنه حفل بدوي لكنه سيكون صاخبا، وهي فرصة لك لتتعرف على عادات هؤلاء القوم وتقاليدهم، إنهم بدويون

وفقراء لكنهم ليسوا محافظين، ويعشقون الموسيقى والرقص؛ هل تتصور أنه من العار هنا أن لا ترقص الفتاة في حفل زفاف صديقتها؟ هل تتصور أن الفتيات هنا يرقصن في الأعراس أمام مرأى ومسمع من إخوتهن وأزواجهن؟

في الحقيقة هو لا يحمل تلك الشحنة التاريخية ولا يهتم لما كان عليه آباؤه تجاه هؤلاء القوم، كما أن فكره خال من تلك النظرة التي تنظر بها خالته وأبناؤها لهؤلاء، منذ قليل كانت بنت خالته مريم، تخبره أنها لم تحضر حفل زفاف في هذه القرية قط، "إنها حفلات شعبية يتساوى فيها الناس كأسنان المشط".

بعد حديث مطول بينه وبينها من خلال لغة العيون والأجسام، أخرج هاتفه متظاهرًا بقدر كبير من الاهتمام وكأن شخصا مهما يتصل به، ثم خرج من الخيمة واضعًا الهاتف على أذنه.

كانت صدفة رائعة حين اتجه نحو منزل أهلها القريب من مكان العرس، وما هي إلا لحظات انتظار غير طويلة حتى لمحها تخرج من الخيمة متجهة نحوه.

بادرها بالسلام متظاهرا بالانشغال بهاتفه. ردت عليه بلهفة وكأنها تنتظر هذا السلام منذ ولادتها ثم أردفت قائلة: هل تبحث عن تغطية أحسن؟

هو: نعم، ألا تلاحظين أن التغطية في هذا المكان ضعيفة جدا؟

هي مبتسمة: بلى، إذا كنت تريد الإشارة فعليك أن تصعد إلى مكان مرتفع.

هو: أين أجد هذا المكان؟

هي: تعال معي إلى منزلنا، فهناك برميل مياه يمكنك الصعود عليه.

كان يعرف أن منزل أهلها خال في تلك اللحظة، فقد أجرى عنها تحقيقا للتو مع ابن خالته، الذي أخبره أنها إحدى فتيات الحي المشار إليهن بالبنان، ثم أراه أمها وأختها وأخوها، كان أخوها، والذي يعمل شرطيا في المدينة، منهمكا في تنظيم الحضور للحفل والإشراف على سلامة الجميع من البنادق المرفوعة في أيدي مجموعة من أصدقاء العريس، ومن طلقات النار التي تتدفق بين الفينة والأخرى من بندقية أحدهم وكأنهم في حرب شوارع.

حين وصلا إلى المنزل، بقي في الباحة، أما هي فتظاهرت بانتهاء مهمتها الإنسانية في إيصاله لمكان الإشارة قائلة: دونك البرميل لتصعد عليه وستجد الإشارة، ثم دخلت في إحدى غرف المنزل...

ما لبثت أن خرجت تحمل ملحفة، وبادرته بالسؤال: إذن هل وجدت التغطية؟

هو: في الحقيقة سوف أؤجل هذه المكالمة لوقت لاحق....

بنظرة وابتسامة ماكرتين همهمت وقالت له: لعل الحفل لم يعجبك؟

هو: في الحقيقة إنه حفل رائع، لكنني انزعجت كثيرا من هذه البنادق وهذا السيل من الرصاص، إن أصوات المدافع تصيبني بالدوار.

هي: لهذا السبب غادرت الحفل إذا؟

هو: نعم يمكنك قول ذلك، وأنت لم غادرت الحفل؟ لا تقولي لي إنك تحرصين على توفير التغطية الجيدة لزواركم؟

– لا، إنما خرجت لأجلب ثوبا جديدا للعروس، فقد أصابها الدوار وتقيأت قليلا على ملابسها.

– هل تعرفين؟ أنا أيضا مصاب بدوار، وقريبا سأتقيأ على ملابسي، لا تتركيني هكذا.

– من أنت وما اسمك؟ رأيتك مع سعيد للتو، هل أنت ضيفهم الذي جئت معهم من العاصمة؟ هل خالتك عائشة؟

– نعم.

– إذا أنت ابن فلان وأمك فلانة؟

– أجل، هل تعرفينهم؟

– بالطبع ومن لا يعرفهم، لقد سكنتم هنا منذ فترة بعيدة، كانت أمك امرأة طيبة تعطف على الناس، وكان أبوك كثير العطاء والمساعدة، سمعت أنه كان متواضعا، وكان الناس

هنا يطرقون بابه كثيرا في الأوقات المتأخرة، ليذهب بالمرضى إلى المدينة في سيارته الفارهة رباعية الدفع، لم يتكبر قط ولم يرفض لهم طلبا، كثير من الفتيان والفتيات هنا ولدوا في سيارته، أثناء ذهابه بأمهاتهم إلى المستشفى في المدينة.

هو: شكرا على الإطراء، لكنك لا تعرفينهم شخصيا فأنت كنت صغيرة في تلك الفترة، أليس كذلك؟!

هي: بلى، لكني سمعت الناس يتحدثون بهذا، ثم إنكم جئتم هنا مرات عديدة لخالتكم أثناء فترات إقامتها هنا. أليس كذلك؟

هو: بلى، صحيح.

هي: لقد قابلتكم مرات، لقد قابلت جميع أفراد أسرتك، وأعرفكم جميعا، لكنك لا تتذكرني فلعلك لا تهتم لكثير من الوجوه التي تشاهدها هنا، ثم إني في تلك الفترة كنت صغيرة... لقد كنت مع أخيك الأصغر في المدرسة فترة إقامتكم هنا، كنا في الصف الثاني وأنت كنت في الصف الرابع. هل نسيت؟

هو: العفو لا أذكر كثيرا من الأشخاص الذين كانوا معي في المدرسة هنا، فقد مضى على تلك الفترة عشر سنوات أو تزيد. هي: نعم صحيح... إذا ستسمح لي بالذهاب إلى النسوة لأعطيهن هذه الملحفة ثم أعود إليك، إياك أن تتحرك من مكانك.

***

وقف ينتظرها، كانت تلك الدقائق الخمس التي أمضاها منتظرا إياها، طويلة جدا، كل ثانية منها يمر به شخص، يصيح عليه قبل أن يصل قائلا: من؟ فلان أم فلان، ثم يتابع طريقة معتذرا بعد أن يعرف أنه شخص نكرة من أهل المدينة.

يا للكارثة! أحدهم يبدو أنه عرفه، إنه زميل قديم في المدرسة، وهو ابن عمها، كان هذا الشاب صديقا له عندما كانا معا في مدرسة القرية، لقد تغير تماما، أصبح يدخن، وبشارب ولحية، لكنه لا يزال لبقا وذكيا، لقد عرفه حق المعرفة...، تصافحا وعانقه بحرارة.

لقد فهم أنه لم يعرفه، فبادره قائلا: ألم تعرفني أنا إبراهيم، لقد كنا معا في المدرسة، كيف أنت وكيف حالك بعدنا؟

– أنا بخير.

إبراهيم: سمعت أنك أكملت دراستك في الخارج فأين وصلت فيها؟

هو: أنا لا أزال في الجامعة، وأنت؟

إبراهيم: ممتاز، ثم أردف بمرارة، أنا كما تشاهد، تركت الدراسة بعدك، وأنا الآن هنا أقيم مع الوالدين، وأشرف على ماشية الأسرة.

هو: جيد جدا.

بعد حديث مقتضب وتبادل السؤال عن الأحوال، فهم إبراهيم أنه غير مرغوب فيه، فبادر بلباقته المعهودة قائلا: إذا لعلك كنت تتحدث في الهاتف قبلي. سأتركك لتكمل حديثك، لكن عدني أن تزورني في المنزل قبل رجوعك إلى العاصمة.

هو: لك ذلك، سأحاول بحول الله.

ما إن تركه هذا الزميل الثقيل في هذا الوقت، واللطيف في الأوقات الأخرى، حتى بدت له قادمة بتثاقل متظاهرة بكثير من اللامبالاة، وكأنها تتجه نحو منزل أهلها.

هو ذكي جدا، وقد فهم أنها تتظاهر بذلك حتى لا يشعر ابن عمها إبراهيم بشيء، بعد أن اختفى إبراهيم، عرجت عليه وقالت: إذا أنت تعرف إبراهيم؟

هو: نعم لقد كنا صديقين لقد كان معي في المدرسة هنا.

هي: إذا كيف حالك مع الصداع؟ وماذا نفعل ليزول عنك هذا القرف الذين أصابك في الحفل؟

هو: لا بأس، لنذهب لمكان هادئ ومريح، فالمكان صاخب هنا.

هي: ما رأيك في منزلنا؟

هو: لا لا، سيأتي أحد أفراد أسرتك، هل تدلينا على مكان أكثر هدوءا؟

هي: إذا لنذهب لربوة صغيرة أعرفها هنالك، إنها مريحة ونظيفة وهادئة للغاية، ثم إن نسمات الرياح ستداعبك هناك فتنسيك كل شيء.

هو: هكذا إذا! هيا بنا.

جلسا على تلك الحلة المزركشة الزاهية التي يغلب عليها لون ذهبي يحيل المكان إلى لوحة طبيعية تنضح بعذوبة وسكون رائع، تحيط بهما ربوات صغيرة ونسمات تداعبهما وسط هدوء يجعل من المكان فردوسا تعجز الأقلام عن وصفه؛ اختارت جلستها بعناية من يعرف المكان، فقد استقبلت نسمات الرياح بوجهها، وتعمدت تسليم أمر ملحفتها لتلك النسمات التي أعجبتها اللعبة فبدأت تبدي ثم تعود لتغطي جيدها الأبيض الصقيل وخصلات من شعرها دون أن تكشف عنه جميعا، جالبة إليه بين الفينة والأخرى رائحة عطرها الذي وضعته بعناية حين ذهبت لتسلم للعروس الملحفة الجديدة.

أما هو فقد ضم عليه ثوبه وجلس بطريقة تمكن انسيابية النسمات لتداعبه من جميع الجهات، لم يكن يقطع ذلك الصمت المطبق المحيط بهما سوى أصوات العرس، التي تحملها الرياح فتصير عبارة عن مزيج من الأصوات المتقطعة وكأنها قادمة من بعيد، لتتوجها طلقات نارية ثم تختفي قبل أن تعود.

بدأ الحديث يأخذ منحى غير اعتيادي، حين أعادت عليه السؤال ما إذا كان انصرف عنه الدوار الذي عانى منه، ليجيبها:

هل تعرفين، لا مكان للدوار ولا لأي وجع، حين يكون الشخص جالسا في هذا المكان ومعه امرأة في غاية الجمال واللطف مثلك.

بدا مزيج من الحياء والنشوة بهذا الإطراء بادية على محياها وهي تقول له: شكرا على هذا المديح المبالغ فيه، في الحقيقة لقد ارتحت لك، تماما كما شعرت بشيء غير قليل من الحنان والعطف ناحيتك، إنك تبدو بالنسبة لي غريبا يبحث عن مكانه هنا، وأنا أعرف ذلك الإحساس جيدا.

ابتسم ثم قال: وهل تشعرين بالغربة هنا؟

هي: شيئا ما! أو يمكنك القول إنني أحس دائما أن مكاني ليس هنا.

– أين؟

– لا أعرف، ربما في مكان آخر.

قال في نفسه وهو ينظر إليها: هكذا إذن، لا شك أنها فتاة من فتيات اليوم، ستنغص علي بالحديث عن طموحاتها ومستقبلها الذي ضاع، وأن هذه الدنيا لا تسعها، وكيف

أنها ولدت في الزمان والمكان الخطإ؛ إذن لنغير هذه الأسطوانة التي تعودت على سماعها كثيرا.

هو مستمع جيد، هكذا يصفه العارفون به، إنه يسمع أكثر مما يتحدث، دائما ما يوصف بأنه طبيب نفسي، كتوم للأسرار، وقد اعتاد على ثقة الآخرين به، حيث يحكون له أسرارهم ومشاكلهم بكل أريحية، كما أنه يملك ملكة تغيير المواضيع دون أن يشعر محدثه، ويستطيع معرفة اهتمامات محدثة وما يود الحديث عنه من الكلمات الأولى.

كان يود تغيير الموضوع فبادرها قائلا: لا شك أنني محظوظ لأكون هنا في هذا العرس الجميل الليلة، هل تعرفين، إن لأهل هذا العرس حقا كبيرا علي، إن هذا العريس رجل مبارك، فقد أسعد نفسه الليلة، وأهله، كما كان سببا في سعادتي، حيث التقيت بك، يا له من رجل دعت له أمه كثيرا، سوف أحرص على شكره إذا سنحت لي الفرصة بلقائه.

هي: حقا !!

هو: بكل تأكيد، هل يبدو علي أنني أمزح؟

هي: في الحقيقة كل شيء يبدو عليك سوى الجدية. تناول الحديث كل شيء تقريبا، فبعد تعارف مقتضب أخبرته من خلاله أن اسمها خديجة، وأنها تبلغ من العمر تسع

عشرة سنة، وأنها أنهت دارستها في المرحلة الخامسة من الابتدائية، سألها عما إذا كانت مخطوبة لأحدهم لترد عليه بالنفي.

هذا كل ما كان يريده، سيطرت مواضيع المغازلة على الحديث، انتقوا من أحاديث المغازلة أطيبها وأرقها، كانت تتحدث أكثر منه، ويسمع باهتمام وهي تحكي عليه قصصا وأمورا كثيرة.

قال في نفسه: هذه الفتاة القروية القاطنة في قرية نائية ومعزولة، أكثر رومانسية وجاذبية من غيرها من بنات المدينة اللائي قابلتهن.

بدأت المسافة التي لم تكن أصلا متباينة بينهما تنقص باستمرار، بعد أن كانت بضعة سنتيمترات، ها هي تضع ركبتيها على فخذيه.

كم كانت دافئة وحنونة في تلك الليلة التي لا تنسى.

وكم كان صوتها عذبا، حين سألها قائلا:

هل تحبين الموسيقى؟ لتجيب: نعم أسمعها من وقت لآخر، وأنت؟

– أنا كذلك. أي نوع من الموسيقى تفضلين؟

– أحب الموسيقى المحلية التقليدية طبعا، كما أني مولعة بالموسيقى العربية الشرقية.

– كيف؟! هل تحبين الموسيقى العربية، هذا جميل، مثل ماذا مثلا؟ ألا تسمعينا شيئا مما تحبين.

– بدأت بصوت شجي وعذب وخافت تطربه برائعة ميادة الحناوي، حين أنشدت: آن بعشقك آنا.

حين استفاق من سكرته، هز رأسه كثيرا وهو يقول متأوها: والله إن صوتك أجمل من صوتها وأعذب.

– لا تبالغ كثيرا.

– لا، صدقا عندك صوت رائع.

تعجب في داخله، كيف تكون هذه الفتاة القروية تحفظ أغاني الحناوي، وتشدوها بذلك الصوت الشجي والجميل.

مضت الدقائق والساعات سريعا، لم يفيقا من نشوتهما إلا بصوت قادم من بعيد بدا أنه صوت أخيها الذي ميزته من بين الأصوات المختلطة، نطق باسمها ليعرفا أن العرس قد انتهى.

– يبدو أنه أخي!! هل رأيت لقد انتهى العرس، علي أن أذهب سريعا قبل أن يشعر أخي بغيابي، ويكتشف أني لم أكن مع صويحباتي، لقد قضيت معك وقتا ممتعا، لن أنساه أبدا.

– أنا أيضا، لكن قبل أن نذهب عليك أن تعطيني رقم هاتفك، يجب أن نظل على اتصال، هل تظنين أني أخْيب إلى هذا الحد، لأجد مثلك ثم أتركها تذهب هكذا.

– لكني لا أملك هاتفا.

– إذا ما العمل؟

– اسمع، سوف أعطيك رقم هاتف أمي، لكن عليك أن تتذكر دائما أنه رقم والدتي وليس رقمي، لذلك إذا اتصلت به فتظاهر بالسؤال عن شخص آخر وكأنه غلط، حتى تعرف من الذي يستقبلك، في العادة تستقبله إما أمي أو أنا أو أختي، في حال غياب أمي.

– ممتاز، إذا لا يمكنني أن أرسلك لك رسائل نصية؟

هي: لا في هذه لا تقلق، فوالدتي لا تعرف فتح الرسائل النصية، وكل ما تفعله حين تردها رسالة هو أن تطلب منا – أنا أو أختي – أن ننظر لها ما إذا كانت الشركة تعلن

عن زيادة في التعبئة، لذلك فالاحتمال الأقوى أن أقرأ إما أنا أو أختي أي رسالة ترد للهاتف، كل ما عليك فعله هو أن لا تذكر اسمي.

هو: بكل تأكيد.

هي: إذا متى سترجع للعاصمة؟

هو: كنت أنوي الذهاب غدا أنا وسعيد، لكن يبدو أني لن أذهب لأي مكان، الظاهر أني سأستقر هنا، هل ستأتين للعرس ليلة الغد؟

ضحكت ضحكة قطعها تأوه ملاحظ ثم قالت: للأسف كانت هذه آخر ليلة من ليالي العرس، أنت تعرف أن الأعراس هنا لا تزيد عن ثلاث ليال.

– سحقا !! إذا كيف سنلتقي غدا؟

– ليس هناك إمكانية للقاء، فأنا لا أستطيع أن أخرج في الليل بله النهار، الكل سيراني والكل هنا يعرفني، أضف إلى ذلك أنه لا بد من سبب وجيه للخروج.

– ألا يمكننا أن نلتقي بعد صلاة العصر؟ ما رأيك أن نلتقي خلف الكثيب الكبير هناك، ذلك الذي يحد القرية، إنه خال وسيفصلنا عن الأعين.

– مستحيل، لا يمكنني الذهاب وحدي، لا بد أن تكون معي صديقاتي، ولا أريدهن أن يأخذن خبرا بشيء، فهن يتحدثن كثيرا، كما تعرف لا شغل للفتيات هنا إلا الحديث

بعضهن عن بعض، ثم إنني لست متعودة على الذهاب لذلك المكان، سيستغرب الجميع ذهابي، وقد تصر أختي الكبرى على مرافقتي إلى هناك.

– إذا لن أذهب غدا، على أمل أن نلتقي.

– ممتاز، لكن انتظر هنا، حتى أصل لمكان العرس، ثم اتبعني حتى لا يشعر أحد بشيء، لا شك أن صديقك لا زال ينتظرك هناك أليس كذلك؟

– بلى، لا عليك.

حين التقى بابن خالته سعيد، قص عليه باختصار كيف كانت قصتهما، امتدحها كثيرا، قال: هل تعرف يا سعيد، لقد فاجأتني هذه الفتاة كثيرا، إنها رقيقة وجميلة ومثقفة وذكية، وأمور أخرى.

سعيد ضاحكا: ألم أقل لك إنك لن تندم إن رافقتني، إنها من خيرة الفتيات هنا، ثم إنه عليك ألا تزدري أهل القرية إلى درجة خلوها من الفتيات المتميزات.

هو: لا يا صديقي إنه ليس ازدراء، لا أعرف ماذا يكون، لكن صدقني لم أتوقع أن التقي شخصا كهذه.

عند الوصول إلى البيت، سألتهما بنت خالته وهي تحضر لهما العشاء، إذا كيف كانت حفلتكم؟

حدثاها ببعض ما جرى.

في الليلة الموالية، أصر على ابن خالته أن يذهبا لمكان العرس، وأن يقوما بدورية حول منزل معشوقته الجديدة تلك دون أن يشعر أحد ... وفي الصباح سافرا.

مرت الأيام والشهور، ودخل عبد الرحمن عالما آخر غير عالم خديجة.

خلال سنة كاملة مليئة بالأحداث، في حياته، وروتينية جدا في حياة خديجة، اكتفى بخمس رسائل نصية، وثلاث مكالمات هاتفية، في بداية شهرين من فراقهما؛ الرسالة الأولى، والتي تألفت من سطرين سألها عن حالها، دون أن يذكر اسمها، صبت بقية الرسائل في نفس المنوال، لكنها ظلت دون جواب.

أما في الاتصال الأول فقد استقبلته أمها، صاحبة الحق الشرعي، في استقبال المكالمات، وقد دار بينهما حديث مختصر:

– ألو السلام عليكم، كيفت الأحوال؟

– وعليكم السلام ورحمة الله، نحن بخير، وفي أحسن حال، من معي.

– أنا عبد الرحمن، أليس هذا رقم يعقوب؟

– لا، لعلك أخطأت في الرقم يا بني.

– آسف، مع السلامة.

– لا عليك، شكرا، مع السلامة.

بعد نحو من عشرين يوما، جاء الاتصال الثاني، الذي لم يختلف عن سابقه.

– آلو، السلام عليكم.

– وعليكم السلام، غمرته الفرحة، فلم يكن هذا صوت أمها، لقد كان صوتا شبيها بصوتها، لكن من حظه أن تريث، ليتبين له فيما بعد أنه لم يكن سوى صوت أختها.

جاء الاتصال الأخير بعد أسبوع، حين كان فوق أحد السطوح، شاهد اكتمال القمر وروعة النسمات مع زخات المطر حيث اعتاد على قضاء الشتاء في الخارج، هنا تذكرها، ثم تذكر المثل القائل الثالثة ثابتة، قال في نفسه علي أن أجرب لمرة أخيرة .... رن الهاتف كثيرا لتكون المفاجأة

يا رباه، إنه صوتها...!!

إنه هو، إنه صوته ...!!

–آلو السلام عليكم، كيف الحال، محمد كيف حالك، أليس هذا رقم محمد؟

– لا، هذه إحداهن تدعى خديجة.

– اعذريني، لقد اتصلت بك، مرات وأرسلت لك عدة رسائل.

– لا تقل مرات، لقد اتصلت مرتين فقط.

–هل قرأت رسائلي؟

– قرأت اثنتين منها...

كانت وحيدة في المنزل، لقد ذهبت أمها لزيارة بعض الجيران وكذلك فعلت أختها.

تصورته بجانبها، تذكرت بالتفاصيل الدقيقة جلستهما، وهو يبث إليها أشواقه عبر الهاتف، تمنت كثيرا لو استلقت على السرير بجانبها، وهي تداعب خصلات شعرها، لتتحدث إليه وتسمع منه أكثر وأكثر، لكن المشكلة أن التغطية ستضعف بل ستختفي إذا خفض الهاتف للأسفل، ليس عندها إلا أن تحدثه واقفة... في هذه المرة تحدث أكثر، وسمعته أكثر.

انتهى الحلم بانتهاء المكالمة، وكأنه سراب تلاشى، أو أمل خاب في لحظات، لقد ودعها بعد ربع ساعة من الحديث العذب، لتضم الهاتف إلى صدرها، متمنية لو صار أكبر من حجمه حتى تضمه أكثر وأكثر.

كان عذره في عدم الاتصال بها، – زيادة على عدم أريحية أن يتصل رجاء لقاء فتاة عذبة الحديث فيجد على السماعة امرأة ناضجة تخبره أنه أخطأ في الرقم، هو أن الاتصال بالفتيات بعد فراقهن ليس من شيمه، لقد أخبره، أحد أصدقائه المجربين

قائلا: هل تعرف أن أفكارك هذه سديدة مائة في المائة؟ حسبك من الاتصال بها إن كانت لك بها حاجة، أي إن كنت تريد لقاءها بعد نصف ساعة، أما الإكثار من الاتصال فسيجعلها تغتر وتظن أنها كليوباترا.

انقضت سنة كاملة، امتلأت بالأحداث بالنسبة له، قضى معظمها في الخارج، والتقى بفتيات عديدات.

في الواقع هو ليس زير نساء، على عكس ما يصفه به كثير من صديقاته وزميلاته؛ إن فلسفته في الحياة أن قلب الرجل كبير، ولا ضير في أن يواعد كل فتاة تسنح له الفرصة بمواعدتها، إن كانت جميلة.

لقد أحب كل فتاة واعدها حبا صادقا، وهذا هو الفرق بينه وبين بقية أصدقائه، إنه ينظر إلى المرأة ككائن يستحق كل الحب والتقدير والاحترام، وليس آلة للذة وحسب، لم يجبر إحداهن أبدا على شيء لا تريده، ولم يكذب عليها في مشاعره.

لقد أحب كثيرات، لكنه أحب كل واحدة منهن بصدق، واستمتع بكل شيء فعله معها وكل لحظة أمضاها رفقتها من صميم قلبه.

دارت الأيام، وها هو يعود إلى تلك القرية الجميلة بعد عام وشهر تقريبا، لكنه يعود في هذه المرة بدون ابن خالته سعيد، الذي بقي في العاصمة، حيث أصبح موظفا منذ أشهر قليلة.

في الحقيقة لم يكن راغبا في المجيء للقرية، لقد قضى عطلة ممتعة في العاصمة، وخرج للبادية مرات عديدة مع أصدقائه، وهذا يكفي من تغيير الجو.

لكن خالته وعيالها أصروا عليه أن يأتي، في هذه المرة جلبت خالته معها، أخته وأخاه كما كان هناك ابن خالته وصديق أخيه الأصغر، لكن لا مشكلة فهما أصغر منه بسنتين فقط.

اتصل الجميع به يخبرونه بجمال القرية في تلك الفترة، وبضرورة أن يقضي معهم ولو ثلاثة أيام فقط.

لكن الكلام الذي كان أكثر إقناعا بالنسبة له، هو ذلك الذي أخبرته به بنت خالته مريم، حين أخبرته أن القرية تشهد العديد من الأعراس في هذه الفترة، وأن الاحتمال كبير في أن يجد تلك الراحة النفسية التي دائما ما يخبرها أنه كان قد وجدها ذات ليلة، بل يجدها دائما في تلك القرية. ثم إنه قريب منهم، حيث يوجد في بادية تبعد حوالي ستين كلم من هذه القرية، لقد كان يسلم على أعمامه في تلك البادية، حيث يزورهم ليسلم عليهم سنويا، حين يعود من الغربة.

في الواقع هو ليس باحثا عن الشهوة، بل يعتبر ذلك نوعا من السخف، لكنه لن يرفضها إن وجدها في طريقه، لكنه في هذه الحالة كان يبحث عن شيء واحد، هو الحب الصادق والجميل الذي وجده ليلة ما في تلك القرية، لذا قال في نفسه، إذا لم لا أذهب هناك؟، وأقتل ثلاثة عصافير بحجر واحد، أرتاح أياما قبل أن أرجع إلى صخب المدينة، وأشرب مزيدا من اللبن وأمضي وقتا ممتعا مع خالتي وعيالها وأخوي، ثم ألتقي بتلك الفتاة خديجة، لا بد أن ألتقي بها، قالها وهو يحضر للذهاب إليهم.

في أول ليلة في القرية بدا أن أخاه أحمد وابن خالته محمد، يتجهزان، وسمعهما تحدثا عن عرس في طرف القرية سيكون رائعا.

كان يشعر بقليل من الملل، مع عدم الرغبة في أن يزول عنه، لكن فاطمة أخته ومريم بنت خالته، اقترحتا عليه الذهاب إلى العرس، قائلتين: عبد الرحمن لم لا تذهب أنت أيضا، ألا تشعر بشيء من الفضول لذلك العرس؟

هو: لا، لا أشعر بالرغبة في الذهاب.

فاطمة: ليتني كنت مكانك، أشعر برغبة شديدة في الذهاب هناك والاستمتاع بمشاهدة تلك الطقوس الرائعة.

مريم: هذه أنت فضولية دائما !!

حين وصل أحمد ومحمد للعرس، لفتت انتباههما فتاة جميلة، لم يترددا في الجلوس قريبا منها، وبعد جلوسهما فاتحها محمد قائلا: من؟! خديجة؟! كيف حالك؟

أثناء حديثهما قدم لها مرافقه قائلا: هذا أحمد إنه ابن خالتي، هل تذكرين؟ لقد كان معنا في المدرسة.

خديجة: نعم أذكره، كيف حالك يا أحمد؟ وكيف حال أخيك عبد الرحمن؟

أحمد: بخير، هل لا زلت تذكرين عبد الرحمن؟

خديجة: أجل، ثم إنه كان هنا في السنة الماضية، لقد التقيت به مع سعيد، أين هما الآن.

محمد: سعيد في العاصمة، أما عبد الرحمن فهو هنا، لقد تركناه في المنزل.

بدت مسحة من الاستغراب والاضطراب على محياها وهي تسألهما: حقا هنا! إذا لِمَ لم يأت للعرس؟!

محمد: لا أعرف، لعله لا يزال يشعر بالتعب، لقد جاء بالأمس.

خديجة : يشعر بالتعب !!

بعد انتهاء الحديث أوصتهما متظاهرة بعدم الاهتمام قائلة: سلما لي على مريم وفاطمة، سلما لي أيضا على عبد الرحمن.

– لا عليك، سيصل سلامك.

***

في صباح اليوم التالي وأثناء حديث ذي شجون، قال محمد؛ الذي كان أقل تحفظا تجاه عبد الرحمن من أحمد الذي هو شقيقه وأكبر منه: لقد التقينا البارحة بخديجة بنت الفولانيين، هل تعرفان يا فاطمة ومريم، إنها تقرؤكما السلام، كما تقرأ السلام لعبد الرحمن.

مر اليوم سريعا، وفي المساء، كانت الليلة الثالثة من ليالي العرس، بدأ الحفل، هاهي طلقات النار تسمع بوضوح، كما تسمع أصوات الزغاريد.

قال في نفسه: سأذهب لهذا العرس الليلة، لعلي أجدها، لكني لست على ثقة من ذلك.

تجهز، وذهب إلى العرس، لم يكن هناك من بين الحضور أي وجه يوحي له بشيء؛ كانت صدمته كبيرة، أثناء عودته إلى المنزل بعد نصف ساعة فقط قضا ثلثها في الطريق إلى العرس، فكر قائلا: لم لا أذهب إلى تلك الربوة حيث التقينا لأول مرة؟!

سأذهب هناك، على الأقل أسلم على تلك الربوة، كم أعشقها، من الخيانة ألا أمر بها وأحييها.

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكم علي إذا حرام

اعتلى الربوة وهو يترنم قائلا:

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

في الجهة المقابلة من القرية كانت خديجة تخوض معركة ديبلوماسية شاقة مع أمها.

في البداية لم تكن لها رغبة في الذهاب إلى العرس، لكنها فكرت: لا شك أن محمد وأحمد سيخبرانه أنهما التقيا بي ليلة البارحة، لا شك أنه سيأتي الليلة بحثا عني، سأذهب لعلي ألقاه، لكن لا أظن ذلك.

منعت أختها سلمى بالذهاب معها إلى العرس، وبعد كثير من الشد والجذب، وافقت سلمى بشرط أن يمكثا عشرين دقيقة فحسب.

تجهزت وتزينت كثيرا، لكن العقبة الأكبر كانت الوالدة.

حين خرجتا بادرتهما والدتهما قائلة:

إلى أين تذهبان هكذا؟!، ما هذه الفوضى وكأني لست موجودة؟!

خديجة: نحن ذاهبتان إلى العرس يا أماه، كما تعلمين ستغضب علينا العروس إن لم نأت، ثم إنها صديقتي لابد أن أحضر زفافها.

الوالدة: لكنكما ذهبتما البارحة، وهذا يكفي.

خديجة: لا، لقد اشترطت علينا فلانة أن نأتي، نحن صديقاتها، لليالي عرسها الثلاثة، وأنا تغيبت في الليلة الأولى، ما يعني أني تغيب عن العقد، ثم حضرت في الليلة الثانية؛ على الأقل علي أن أكمل جميلي وأحضر في الثالثة.

الوالدة: عجبا لبنيات آخر الزمان، ومتى كانت العرائس يقررن في أمر عرسهن ويتحدثن عنه!! وأنت يا سلمى هل ستذهبين معها؟!!

خديجة: لا يمكنني أن أذهب وحدي يا أماه ستذهب سلمى معي، لكنا نعدك ألا نتأخر، سنقضي عشرين دقيقة على الأكثر.

الوالدة: إياكما أن تتأخرا، وإن كنت غير مقتنعة بهذا التغيير المفاجئ، متى كنت أنت خديجة بالذات تحرصين على حضور الأعراس.

لاحظت سلمى أن خديجة تسلك طريقا غير طريق العرس، إنها تتجه نحو تلك الربوة الخالية.

– أين تذهبين أيتها المختلة، إن العرس هناك.

خديجة: اسمعي يا أختي، سأقص عليك أمرا وأرجوك أن تتركيه سرا بيننا.

سلمى: ما الأمر؟!

خديجة: هل تعرفين عبد الرحمن، ابن خالة سعيد، ابن فلان، الذي كان هنا في العام الماضي؟

سلمى: نعم، ما باله؟

قصت عليها القصة بالتفصيل، ثم أردفت قائلة:

إنه هنا، هذه الأيام، ولا شك أنه سيأتي للعرس بحثا عني، لذلك حرصت على الذهاب كي ألقاه، لكني قلت في نفسي: لعله ذهب لذلك المكان حيث التقينا لأول مرة، لعله يكون هناك، فإن لم نجده سنذهب للعرس، وإن لم نجده سنرجع، هذا كل شيء؛ لكنك تعرفينني فأنا جبانة، ولا أستطيع أن أذهب لذلك المكان وحدي، فتشجعت بك لنذهب سوية.

سلمى: لا شك أنك مجنونة، ما هذا الهراء، ثم إنني أجبن منك، ولا أستطيع الذهاب هناك إنه مكان خال. خديجة: بل نستطيع، إنه قريب، إنه هناك خلف منزل الفلانيين، دعينا نقترب فحسب لنرى، وإن لم يكن هناك أحد رجعنا، سيعيننا ضوء القمر في مهمتنا، لا تنسي أنه مكتمل الليلة، إنها ليلة الرابع عشرة أو الخامس عشرة.

سلمى: من قال لك أنه ربما نرى أحدا ثم يكون جنيا، أو شخصا آخر غيره، هذا غير معقول، حماقاتك هذه تصيبني بالضجر.

خديجة: أرجوك يا سلمى.

سلمى: إذا هيا، أنا منحوسة منذ بداية هذه الليلة.

كانت المفاجأة كبيرة حين لمحا شخصا، تأكدت خديجة بما لا يدع مجالا للشك أنه الحبيب، واللقاء المنتظر، لتهمس قائلة لأختها: انظري إنه هناك إنه هو، لا شك في ذلك، أنا أعرفه أعرف شكله وقامته أعرف كل شيء فيه.

سلمى: تريثي، ما هذا؟ من قال لك أنه هو، لم أنت متأكدة هكذا؟، قد يكون غيره.

خديجة وهي تسحب طرفها من سلمى: لا، إنه هو. أضمن لك ذلك، لنتقدم إليه وستعرفين.

مشتا نحوه باستحياء، شاهدهما، ثم نزل إليهما، قائلا في نفسه:

كأنها هي، مهما يكن إما أن تكون هي، فهذه ليلة حظي، أو غيرها، سأكتفي بالسلام، وأذهب إلى المنزل.

بعد السلام، قالت سلمى: يا لكما من عاشقين حقيقيين، ما هذا، لا شك أنكما عاشقين أو من أهل الولاية والكشف، كيف عرفت أنها ستبحث عنك هنا؟

عبد الرحمن: القلوب تتراءى!

سلمى: فعلا، هي كذلك إنها أول مرة أدرك صدق هذه المقولة.

خديجة: إذا ما رأيك يا سلمى أن نوصلك إلى العرس؟، ستنتظرين هناك عشرين دقيقة بعد أن ننتهي، سأعود إليك لنرجع معا إلى المنزل.

سلمى: موافقة، لكن لا تتأخري علي، سأذهب عنك إن تأخرت؟

عبد الرحمن: هذا ليس تعبيرا عن الملل منك، لكني أرجو منك أن تفعلي، بل أقترح عليك أن ترجعي من هنا إلى المنزل، أما هي فستبقي معي، ليس يضيركم في شيء أن تعيروني بنيتكم هذه لليلة واحدة، لا شك أنها قيمة لكنكم كرام والهدايا ... .

سلمى: من يريد أن نعيره بنتنا، فما عليه إلا أن يأتي من الباب، هذا شرف لنا، سنعيرها لك مدة العمر، بل إننا سوف نستاء إن رددتها لنا.

عبد الرحمن: إن فعلتم فلن ترجع إليكم أبدا، لست مفرطا لهذه الدرجة.

خديجة: إذا هيا بنا.

حين رجعا إلى الربوة، تنفس الصعداء، وقال: هل ترين، ها نحن عدنا ثانية، يا لسعادتي، لم أعرف أني محظوظ لهذا الحد.

كبرت الربوة قليلا عن المرة السابقة، وكأنها تحاكيهما، لقد كبرت معهما بسنة هي الأخرى، وامتدت منها ألسنة أو أذرع خفيفة جعلتها تقترن بأخرى مجاورة لها، أصغر منها وأحدث تكونا.

كالعادة كان الجو يجمع كل المتناقضات، كان جوا محيرا من السكون والوجوم الذين يخيمان على المكان، في حين كانت الرياح القادمة من الشمال تشدو غناء مرجعا وحداء، كان الكثيب عبارة عن بساط ممهد، كأنه زرابي من حرير.

اجتمع هناك الجمال البديع والسحر والروعة والصفاءُ، لا تزال الطبيعة هنا صرفا لم تنمّقها لا صنعة ولا زخرف طارئ ولا طَلاء. كانت كل معاني الحسن فيها جلية، حيث لا غموض ولا دقة ولا خفاء.

الليل هنا كالنهار، جمال راح يغري صباح الصحراء ومساءها، كان ضوء القمر يقظة تملأ النفوس حياة ما لها عند من يحسُ انقضاءُ، فكأن السكون فيها حراك، وكأن السكوت فيها غناءُ عذب، لتودُ النفس لو تحتويها، وهي أفق لا ينتهي وفضاءُ؛ على رأي الشاعر محمد الأخضر السائحي.

هنا جلسا جلسة العاشقين، ضمها وضمته بحرارة وتنفست طويلا، ثم قالت: كيف قضيت هذه السنة بعدنا وكيف كنت في الخارج، لعلك استمتعت كثيرا مع ما لا يعلم عدده إلا الله من الفتيات.

–كيف تفترين علي هكذا؟ لا يمكن لمن عرف مثلك أن يستمتع بغيرك، وأنت كيف كنت، قصي علي بالتفصيل أحداث السنة الفائتة، أرجو ألا يكون أحدهم أكثر حظا مني.

طأطأت رأسها ثم قالت: لا، أبشر، كانت سنة عادية، لقد خطبني قريب لك، كاد أن يتزوجني.

–قريب لي!! ما اسمه؟

– اسمه محمود، جاءنا هنا وأقنع والدي بفكرة الزواج مني، لم أكن راغبة فيه فقد تخطى الأربعين، ثم إنه بدا لي ثقيل الظل، لم يعجبني رغم ثرائه وسيارته الفاخرة، سمعته يخبر أمي أنه يعمل في المحكمة أظنه قاضيا، هل تعرفه؟

إنه يعرفه جيدا، بل إنه زوج عمته السابق، من غرائب الصدف أنه سمع أخته بالأمس، تتحدث عن قريبهم ذلك، كيف أن صديقا له شاهد فتاة في القرية هنا بعد أن زارها بحثا عن بعض الضالة من الإبل، وأرسله ليخطبها له، لكنه خطبها لنفسه، بعد أن رفضوا خطبة الأول.

يبدو أن أخته كانت تتحدث عن خديجة، لكنه لم يهتم للقصة، فقد اعتاد سماع قصص، أحيانا تكون غير لائقة في هذا المجال، تحكى عن زوج عمته السابق ذلك،

تماما كما اعتاد سماع أخته تتندر بعجائب وغرائب لا يدري من أين تأتي بها، إنها مولعة بالفكاهة، وأحيانا تزيد في قصصها لتكون أكثر إثارة، إنها فكاهية الأسرة وتضحك إخوتها وصديقاتها دائما بهذا النوع من النوادر.

قاطعت تفكيره، قائلة: أين شردت، هل هذا الحديث ممل بالنسبة لك، لعلك لم ترتح لسماع هذا؟

ليرد ضاحكا: لا أنا معك، أكملي، حدثيني، مشتاق لحديثك، بودي أن أسمعك حتى الصباح، وهل جئت هنا إلا لأجل حديثك، حين أمكث معك سبعة عشر ألف سنة، عندها قد أبدأ في التفكير بالملل منك.

هي: خطبني أيضا ثلاثة من أبناء عمي، لكنهم مربوا ماشية، كغيرهم هنا، لذلك كان سهلا علي ردهم.

كان القمر مكتملا، وكان كل شيء واضحا، كأنه النهار.

هو: انظري إلى ضياء القمر، انظري صفاء التربة وجمال انعكاس القمر عليه، كل شيء واضح للعيان، وكأننا في النهار.

–فعلا.

– بالمناسبة، اكتبي لي شيئا على التراب لأنظر ما إذا كنت سأتمكن من قراءته أم لا، احرصي على أن تكون الحروف صغيرة.

ابتسمت ثم قالت: ما الذي تريد مني أن أكتب لك؟

–أي شيء.

– أي شيء، إذا اقرأ.

كتبت بخط جميل وصغير:

أحمد

بكى

كثيرا

قال: وأنا أيضا أحبك كثيرا.

مضت العشرون دقيقة، وعشرون أخرى وعشرون مثلها... مضت سريعا.

كانت جالسة، وكان مضطجعا في حجرها، وهي تتفحص وجهه وتفرق شعر رأسه، بأنامل رخصات جديدا خضابها، حين قالت:

هل تعلم، فيم أفكر.

–فيم؟

– أعرف أن هذا ضرب من المستحيل، لكني أود لو صرنا كأصحاب الكهف، أتمنى لو ضرب على آذان أهل هذي القرية جميعا، هل تعرف! تماما كما يقع في الصورة، إنه عبارة عن اقتطاع جزء من الوقت، عبارة عن توقف الزمن في تلك اللحظة، هذا ما أريده، أريد أن يتوقف بنا الزمن في هذه اللحظات، ونظل نحس بما نحس به الآن طيلة رقودنا، هل تسمع صوت كلب ينبح من بعيد؟.

– أجل، وأسمع صوت بقرة، وصياح شاة وحنين ناقة ... !

– تماما، أتمنى أن يظل كل شيء هكذا، أتمنى أن نظل في سبات ونحن نسمع نباح ذلك الكلب وأصوات حيوانات متقطعة، أريد أن نظل هكذا لسنوات وسنوات.

– لا تقولي هذا، ما يدريك لعل في هذه القرية مريضا أو حزينا أو شخصا يتألم.

– لا، هذا أريده أن يسكن ألمه، أريد الجميع سعداء، أريد أن يتوقف الزمن ونمكث هنا سنين عددا، في نفس الزمان والمكان وبنفس الشخوص والوضعية والإحساس، لتأتي أجيال بعدنا، فيجدوننا متحجرين هنا، فيبنون لنا تمثالا في هذا المكان وبنفس الوضعية، ثم يكتبوا عليه:

عَبْرَ الأجيال... ظل الحب على هذه الرمال.

نبذة عن الكاتب

الاسم: باب أحمد ولد علي

الدولة: أبي تلميت_ موريتانيا

أعمال سابقة:

لا توجد.

التكوين والشهادات:

2006شهادة إكمال تكوين سنة في اللغة الفرنسية والمعلوماتية من التحالف الفرنسي الموريتاني في نواكشوط.

2007شهادة الباكالوريا شعبة الآداب الأصلية.

2009شهادة الدراسات الجامعية العامة من المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية في نواكشوط.

2011شهادة الإجازة" المتريز "في الفقه وأصوله من المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية في نواكشوط.

2013شهادة الدراسات العليا" الماستر "في الفقه وأصوله من كلية الآداب والعلوم الإنسانية – ظهر المهراز – جامعة سيد محمد بن عبد الله بفاس في المملكة المغربية.

2013دورة تكوينية في اللغة الإنجليزية في المعهد الأمريكي – فاس –المملكة المغربية

2019شهادة الدكتوراه في الاقتصاد الإسلامي من جامعة سيد محمد بن عبد الله، فاس، المملكة المغربية.

2009شهادة الباكالوريا شعبة الآداب العصرية العربية.

2012شهادة الإجازة" ليسانس "في اللغات المطبقة والترجمة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة نواكشوط.

2016شهادة الدراسات العليا" الماستر "في اللسانيات والترجمة الاسبانية، من جامعة" غاستون برجي "في سين لويس بالسنغال.

دار
قصص وحكايات
للنشر
الإلكتروني